مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 18، العدد 70 (ربيع 2007)، ص 141

قراءات
كتب بالعربية

بين الوطن والمنفى:
من يافا بدأ المشوار
شفيق الحوت

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2007. 548 صفحة.

يُصرُ المناضل العربي شفيق الحوت على تواضعه الشديد في مقدمة كتابه الجديد "بين الوطن والمنفى"، فهو لا يكتب سيرة ذاتية أو سيرة شخصية، وإنما يقدم سيرة فلسطين وشعبها. لكن أوراق الكتاب تسير بموازاة سيرة الرجل وتاريخ فلسطين الحديث الذي تصادف نكبته سنة 1948 بداية تفتح وعي الفتى السياسي وهو في السادسة عشرة.
حين تقرأ الكتاب تزداد اقتناعاً بأنك أمام رواية أدبية مكتملة تستلهم التاريخ المعاصر، وأن البطل الحقيقي فيها هو شعب فلسطين. لم تُكتب الرواية لتمجيد قائد بعينه، بل كتبت في جميع فصولها لمتابعة مأساة إنسانية هي الآن فريدة في بابها وفي زمانها؛ قضية شعب يريد تقرير مصيره وتحقيق استقلاله، وهو الوحيد الرازح تحت الاحتلال في القرن الواحد والعشرين، ويتعرض لسياسة التشريد والاقتلاع والاعتداء على الهوية. مأساة شعب يشبه نهراً جرى تحويل مجراه فما زال يتدفق ويتفجر هازئاً بكل السدود ليعود إلى مصبه الأوحد، فلسطين.
كتب الكثير في هذه التراجيديا الفلسطينية مع أنها لم تكتمل بعد. جيلنا على الأقل عاش مراحلها الأساسية كما لم يعشها الآخرون. فقد كان لبنان، ولم يزل، منذ ثلاثة عقود على الأقل، مسرحاً لأكثر وقائعها مرارة. لقد أريد لهذا البلد الجميل الصغير الضعيف (لبنان) أن يكون المنفى الذي تضيع في شعابه الكثيرة المتعددة الألوان والأعراق هوية الشعب الفلسطيني، وأن يتوطن جزء منه ويطوي المجتمع الدولي حقوقه الوطنية في غياهب النسيان.
لم يفكر الشعب الفلسطيني في يوم من الأيام في أن يبحث عن وطن بديل أو عن وطن آخر غير فلسطين، ولا يزال كثيرون يحتفظون بمفاتيح بيوتهم هناك وصكوك أملاكهم وبياراتهم. ولم يكن في خلد اللاجئين في يوم ما، في الهجرة الأولى (1948) والثانية (1967) والثالثة (1970)، ولا سيما بعد أحداث الأردن، أن يتخذوا من لبنان أو سواه من بلاد الشتات موطناً آخر، بل هذا ما أراده المشروع الصهيوني لهم. وهم لم يحملوا السلاح في بلاد الشتات إلاّ لاسترداد حقهم في فلسطين. لقد تسرب الفلسطينيون إلى حيث يمكن لهم أن يظلوا على تماس مع حدود وطنهم، وحيثما سمحت الأوضاع العربية لهم بذلك. إن استدراج الشعب الفلسطيني إلى النزاع الداخلي اللبناني كان جزءاً من المؤامرة التي حيكت ضده لتشويه ثورته المعاصرة وإغراقها في الوحول العربية تمهيداً للتسوية التي كانت تعد لتصفية القضية والحقوق. لكن السؤال الذي يقدمه المناضل شفيق الحوت عن هذه الإشكالية لا يلقى جواباً حاسماً: هل كان من المحتم أن يتورط الفلسطينيون بواسطة فصائلهم المسلحة المتعددة في هذا المستنقع، أم أن هناك خطأً تاريخياً تتحمل القيادة مسؤوليته نتيجة أوهام معينة بأن الطريق إلى فلسطين يجب أن يمر بتغيير الأوضاع المحيطة بها؟! وفعلاً يلح المناضل شفيق الحوت في هذا السؤال، ويميل في روايته إلى إجراء النقد الذاتي عن هذه الحقبة التاريخية التي اختلط فيها النضال الفلسطيني بالحروب اللبنانية المركبة. وهو فعلاً يعيب على المجلس الوطني الفلسطيني، الذي عقد في الجزائر في سنة 1983 بعد الخروج من بيروت في سنة 1982، أنه لم يقل "ولا كلمة نقد ذاتي واحدة" (ص 297).
لكن، في مكان آخر من هذه الرواية، يتحفظ شفيق الحوت من إمكان تحييد حزب الكتائب اللبنانية (الطرف الرئيسي في الحرب ضد الفلسطينيين)، بحكم التناقض الأيديولوجي العميق بين ما تطرحه الثورة الفلسطينية من تحديات وبين ما يمثله هذا الحزب من أيديولوجيا معاكسة، فهو حزب محافظ ذو تكوين طائفي. ولم يكن ممكناً إزالة خوف الكتائب، لأن الحدث السياسي الفلسطيني كان يفعل فعله في تغيير الخريطة السياسية اللبنانية (ص 231 – 232).
إلاّ إن الجواب الأكثر وضوحاً عن هذه المسألة يأتي في المعلومات التي يسجلها الحوت، وكان نقلها الرئيس اليوغسلافي، المارشال جوزف تيتو، إلى أبو عمار عن أن هنري كيسنجر خطط قبيل أحداث سنة 1975 لإشعال الحرب في لبنان رداً على الاعتراف العربي التاريخي بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب

الفلسطيني في مؤتمر الرباط سنة 1974. واعتبر كيسنجر أن القرار "قلب معطيات السياسة الأميركية في المنطقة" (ص 185).

لعل من السهل قراءة التاريخ وفق فرضيات واحتمالات، لكن الحدث التاريخي غالباً ما يكون أكبر كثيراً من القيادة مهما يكن وعيها التاريخي حاداً. فليس ممكناً دائماً أن تتوازن فعالية القيادة مع تناقضات بحجم ما حدث في المحيط الإقليمي وفي لبنان في السبعينيات من القرن الماضي، وهو ما يفسر التفاعلات المستمرة على صعيد الأزمة اللبنانية حتى الآن.

وفعلاً قد لا يحتمل كتاب المناضل شفيق الحوت محاكمته كقراءة نقدية فكرية سياسية لتجربة الثورة الفلسطينية المعاصرة. بل هو تأريخ لأبرز محطاتها ولأبرز مشكلاتها وقضاياها من خلال رواية داخلية عاشها أحد قادتها التاريخيين. فشفيق الحوت ليس مجرد شاهد على ذاك العصر فحسب، بل أيضاً أحد المشاركين الرئيسيين في إطلاق تلك الثورة ومواكبة أهم تحولاتها. لكن الفارق الوحيد والمهم بينه وبين الآخرين من القادة، أنه المثقف الذي جاء إلى السياسة من مهنة الصحافة، وحمل دائماً هموماً فكرية ونقدية، ولم يكن صاحب القرار الإداري أو العسكري. وهذه إشكالية رافقت كل الذين أدوا أدواراً مشابهة، قيادية، لكن مع هوامش كثيرة يفرضها الموقع الثقافي.

في أي حال، برزت مساهمات المناضل شفيق الحوت النقدية لهذه التجربة في مكان آخر من كتاباته ومواقفه وتصريحاته ومقابلاته الإعلامية، ولا سيما موقفه التاريخي والجذري من اتفاقية أوسلو (1993)، والتي سنجد خلاصة لها في الفصل المعنون: استقلت احتجاجاً على اتفاقية أوسلو. وحتى هذه اللحظة لا يملك أحد أن يقول كلمته النهائية في هذه الاتفاقية من زاوية احتمالات البدائل والخيارات الأُخرى مهما يقل في بنودها وثغراتها الجوهرية التي تؤجل البحث في المبادئ النهائية للحل وتغرق، أو تغرق الشعب الفلسطيني في تفصيلات إدارة حياته اليومية ومستلزماتها. وكنا نتمنى لو أن شفيق الحوت توسع أكثر في إعطاء الرأي فيما يتعلق بنظرته اليوم إلى الواقع الفلسطيني بعد أكثر من عشرة أعوام على موقفه من اتفاقية أوسلو التي يكاد المرء يقول إنها لم تطبق ولم تعد قائمة فعلاً أمام التطورات المهمة التي شهدتها الساحة الفلسطينية. فهل ما زالت الاتفاقية عائقاً أمام النضال الفلسطيني، أم أنها أعطت بعض هوامش التحرك السياسي والميداني، كما كرست الشخصية الفلسطينية، في ظل هذه الأوضاع العربية والدولية البائسة؟

في جميع الأحوال، هذه ليست وظيفة كتاب شفيق الحوت، لذا لا يمكن محاكمته من هذه الزاوية. على العكس من ذلك فإنه ينعش ذاكرة كل من يقرؤه بالفصول التاريخية لتطور القضية الفلسطينية، ومن المفيد إعادة استخلاصها كما وردت.

- منذ البدء يتحدث الحوت عن الفتى اليافاوي الذي عاش تحت الاحتلال البريطاني واكتشف مبكراً ضعف المجتمع الفلسطيني في مواجهة مؤامرة الاستيطان. وعاش تلك اللحظة التاريخية التي كان فيها الإرهاب الصهيوني والمذابح الوسيلة الأساسية لبعثرة الشعب الفلسطيني وإجباره على النزوح. كانت المدن الفلسطينية "تهيمن العائلات الوجيهة على قرارها السياسي نتيجة غنى أو إقطاع موروث" (ص 26)؛ وكانت الناس تتطلع إلى انتصار هتلر بسذاجة فـ "عدو عدوي صديقي" (ص 23). وكانت مذبحة دير ياسين والترويج الانهزامي لها قد أدخلا الرعب في القلوب (ص 30).
- بين سنة 1948 وسنة 1970 عاش الفلسطينيون في لبنان في أجواء من الضغوط والقمع الهائلة؛ تجربة الحوت الشخصية هي نموذج من ذلك.
- الوعي الفلسطيني يبدأ في التبلور في سنة 1961، وتأسيس جبهة التحرير الفلسطينية، وإصدار نشرة "طريق العودة". كانت مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي مرحلة تحريك الوضع العربي والرهان على المحيط العربي في معالجة القضية الفلسطينية (ص 83).
- عندما نظم الشعب الفلسطيني قواه (الرصاصة الأولى التي أطلقتها "فتح" في سنة 1965)، تحول إلى قوة فاعلة خلقت تحديات للأوضاع المحيطة بها. وبعد حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973 تحولت منظمة التحرير إلى الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني (1974)، فكانت خطة كيسنجر لتفجير الوضع اللبناني ضد المقاومة وضد الوضع العربي تمهيداً لاتفاقية كامب ديفيد.

في تلك المرحلة جرى تعاطف "بين المحرومين في الوطن وبين المحرومين من الوطن"، كما قال الإمام موسى الصدر (ص 168).

وفي هذه المرحلة تحقق إنجازان: الأول، الاعتراف بمنظمة التحرير في الأمم المتحدة (خطاب عرفات)، والثاني، قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية عقيدة عنصرية (ص 195).

- مرحلة سنة 1982 وما بعدها: قذف الفلسطينيين إلى البحر، ومجزرة صبرا وشاتيلا، والانتقال إلى تونس، ومشروع السلام العربي في قمة فاس (1982) وفيه اعتراف بالحدود الآمنة لإسرائيل، ثم المجلس الوطني في الجزائر سنة 1983 (ص 340).

لم يلتقط الفلسطينيون أهمية هذه الأحداث التاريخية والتحولات الاستراتيجية (ص 357). ولم تتم مراجعة تجربة الثورة (1970 – 1983/لبنان)، حتى ظهور انتفاضة الحجارة (1987 – 1988)، وظهور وثيقة الاستقلال الفلسطيني (1988). وقد "تحولت منظمة التحرير الفلسطينية بموجبه [قرار المجلس الوطني/دورة الانتفاضة] من حركة تحرر وطني إلى حركة استقلال وطني" (ص 397)؛ أي جرى تكريس مطلب الدولتين بديلاً من المشروع التاريخي لدولة فلسطين الديمقراطية الواحدة. لكننا نعتقد أن البرنامج المرحلي في سنة 1974 كان قبل ضمناً فكرة الدولتين.

وهنا يمكن أن نقرأ الموقف الجذري للمناضل شفيق الحوت الذي يعتبر جوهر الصراع العربي – الصهيوني ليس صراعاً بشأن الأرض والحدود، وإنما هو صراع بين حركتين تاريخيتين (ص 413). لكن السؤال يبقى عن إمكان التناقض بين الحل المرحلي والحل النهائي، أو بين التسوية التاريخية والحل الديمقراطي لقضية الشعب الفلسطيني. وفعلاً هذه هي الإشكالية التي تحكم اليوم علاقة حركة "فتح" بحركة "حماس" التي هي أقرب لتصور شفيق الحوت.

- عشية أوسلو أطلق شفيق الحوت وبعض قيادات منظمة التحرير الصرخة ضد الفساد المالي والإداري وتغييب المؤسسات وغياب الشفافية. وذلك كله مهد للمفاوضات السرية التي تمت من خارج المؤسسة الرسمية وبغير كفاءة، وصولاً إلى استقالته من اللجنة التنفيذية ومناقشة أوسلو في المجلس الوطني (ص 472 – 476).
- أخيراً، لا يمكن أن يفوتني التوقف عند فصل: عبد الناصر كما عرفته، إذ يقول الحوت أن عبد الناصر قال له: إن توزيع الأراضي على الفلاحين لم يكن هدفه اقتصادياً بمقدار ما كان هدفه "رد الكرامة للفلاح المصري." وعطف الحوت بالقول: "ولأول مرة فهمت معنى شعار (إرفع رأسك يا أخي)" (ص 152).

وهناك إضاءات كثيرة على شخصية القائد العربي العظيم جمال عبد الناصر.

* * *

بعد هذا العرض السريع لما أعتبره مفاصل أساسية للكتاب ركّزتُ فيه على الجانب السياسي، مسايرة لفكرة المناضل الحوت أنه يكتب سيرة الشعب لا سيرته الشخصية، لا يفوتني القول إنني استمتعت بالأسلوب الأدبي الجميل الذي صيغ به، والجوانب الإنسانية والشخصية الكثيرة التي تضمنها. لذا أصر من جهتي على اعتباره رواية أدبية تستحق أن يكون لها موقعها المميز في تراث الشعب الفلسطيني. كما أعتبره وثيقة مهمة لمناقشة هذه التجربة مع ما زالت تطرحه من إشكاليات وقضايا.

سليمان تقي الدين
كاتب لبناني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx